لحظة غابرة

يبدو أنني تعودت على رفع صوتي أمام أمي وعصيانها دائمًا، فذكرتني بأشقائي وكيف أنهم يسمعون كلامها وينفذون نصائحها، وحذرتني أكثر من مرة من ردة فعلها على ما أفعله في حقها، وأنها عليَّ غاضبة، ولم يكن هناك بد من أن تصارحني في النهاية، فأشاحت بوجهها عني والدموع تغرق عينيها، وقالت: اذهب من هنا.. اذهب إلى أمك.. قد كفانا ما نلاقيه منك فلم نعد نتحمل عصيانك وشقاوتك وتمردك.

نظرت إليها وكأنني أراها لأول مرة، صعقتني كلماتها التي هبطت كالرعد من السماء غير مصدق ما أسمع.

- أمي!
- لست أمك.

بكيت ثم بكيت وأحسست وكأنني أكلمها لأول مرة، حاولت وحاولت أحسست ساعتها بأنني أفقد نبضات قلبي، وأن الدماء التي تسري في عروقي تؤلمني بشدة، فأنا أعرفها من ابتسامتها.. نبضات قلبها.. أنفاسها.

أخذت أستعطفها بأن تسامحني، ولكنها أبت وقالت لي: اذهب إلى أمك! فهي تجلس على عتبة المسجد الكبير، واعلم أننا أخذناك منها منذ صغرك؛ لنقوم على رعايتك وتربيتك، ولكننا فشلنا ولم نفلح.. هيا انصرف من هنا.

ثم بكت وأبت أن تحدثني وانزوت بعيدًا داخل البيت.

جلست في زاوية البيت أبكي حالي، وأحسست أن الحياة تلعب بي، حاولت وحاولت الهروب من بين براثنها، ولم أستطع كل الأشياء تحطمت الأحلام.. الأماني.

رأيت الخوف يقترب وكأنني لم أطمئن قط، إلا وأنا في حضنها.

شعرت وكأنني أحث الخطى ناحية الهاوية.. أسير في وادٍ من السراب، وتهت فيه حتى كان ظني أنني لن أرتاد الطريق بعد.. وأثقلت برأسي الأفكار والهواجس، حتى إنها قهرتني وهزمتني.. لحظات قليلة مرت عليَّ أحسست فيها باليتم والغربة والوحشة، حتى تملكني الخوف وأنا أبصر من بعيد أشباح المصير والمجهول، يكاد أن يلقفني رويدًا غرقت عيناي في نوم عميق ونمت.

أراها من بعيد تجلس على عتبة المسجد الكبير تستعطف المارة أن يساعدوها وهي تردد (لله).

تحركت قدماي ناحيتها، تتحسس الطريق واقتربت رويدًا رويدًا.. أحدق ناحيتها بناظري.. أحدد ملامحها.. أستحضر ذكرياتي الميتة عبر شريط ذكريات الماضي حتى غرقت في موج بحر هائج من اللا شيء.

جلست على مقربة منها يتملكني الذهول، غير مصدق ما سمعته منذ قليل.. ولم تعرني أدنى انتباه، وأخذت تستعطف المارة لمساعدتها وهي تردد (لله) اقتربت.. واقتربت.. والدموع تنهمر من عيني وهمهمات صدري، تكاد أن تفتك بأعماقي.. فبين لحظة وأخرى أصبحت ابنًا لها بلا مأوى!

عدت على صوت شقيقي الصغير، وهو يوقظني من نومي ويدعونني لتناول طعام العشاء.

ساعتها.. ساعتها فقط ارتسمت على وجهي ابتسامة خفيفة، لمع بريقها في عيني ليزيل آثار اللحظات الغابرة.

أسرعت أركض ناحية أمي أقبل يدها.. وأحتضنها وأطلب برها ورضاها.